الغدير .. التقيض العقائدي والوجودي لفلسفة نهاية التاريخ

د. عبد اللاوي محمد

قسم الفلسفة –جامعة وهران _ الجزائر

الغدير تنزيل أي يتمتع ، بالمعنى الفلسفي ، بموقع فوق –تاريخي يجعله قادرا على التأسيس لتاريخ جديد غير التاريخ الهيجلي القائم على التوافق بين الواقعي و العقلي ، و العقلي و الواقعي . الغدير هو الذي يوصل التاريخ إلى المستقبل ليس كمستقبل تابع لحتمية تاريخية بل كمستقبل موعود عقائديا . فالغدير هو الذي يحمل و يمثل المعنى الكوني للتاريخ ، للتاريخ النقيض للتاريخ الهيجلي . فالغدير يحول الأمة من التاريخ الواقعي (الهيجلي) إلى التاريخ الحقيقي . أي يجعل حقيقة الأمة حقيقة مجاوزة للتاريخ لأن التاريخ ليس مطلقا و علاقة الأمة بالتاريخ ليست علاقة نسبي بمطلق (كما يرى هيجل) بل علاقة نسبي بالله تعالى .أي علاقة تعبدية بالله تعالى تحول التاريخ إلى عبادة و ليس إلى إله يعبد .

فالرؤية الهيجلية للتاريخ هي رؤية صحيحة على المستوى الذي تتخذ فيه موقعها : مستوى تاريخ الشعوب و الدول في الواقع ، أو بعبارة أدق إن الرؤية الهيجلية إلى التاريخ هي رؤية صحيحة عندما نحصر التاريخ في الواقع أي في دائرة ماهو كائن ، حيث تهيمن القوة و حيث يهيمن الغرب و حيث هيمن يزيد بن معاوية و هيمن الملك في تاريخ الأمة . هذا واقع التاريخ . غير أن الرؤية الهيجلية إلى التاريخ و إلى مستقبل الشعوب لا تشمل كل الحقيقة أو لا تعبر عن حقيقة علاقة الأمة الإسلامية بالتاريخ .فالأمة الإسلامية زمانها هو زمان ما يجب أن يكون .فهي تتخذ موقعها في الواقع أي في التاريخ الواقعي ، تاريخ ماهو كائن من موقع علاقتها بما يجب أن يكون أي علاقتها بالتاريخ الحقيقي الذي أسس له الغدير .

لا شك أن كل الشعوب و الأمم تتطلع إلى ما يجب أن يكون . هذا التطلع محدود لأنه منتوج تاريخي و لأنه تطلع مبهم يتخذ صورة المثالية و صورة الخيال و الطوباوية مرة أخرى . كما أن قيادة هذا التطلع تابعة ، هي الأخرى لتركيبة هذا التطلع و صورته و محدوديته .

و ليس الأمر كذلك بالنسبة للأمة الإسلامية حيث أن العقيدة الإسلامية تعطي للأمة حقيقة تجاوزية فوق – تاريخية ، و هذه الحقيقة لازمتها قيادة فوق – تاريخية هي الإمامة ، ومن هنا التفاعل و التناسق بين حقيقة الأمة و الحقيقة الفوق – تاريخية للغدير أي للإمام علي (ع) نموذج الإمامة.

فمجاوزة التاريخ و الخروج من التاريخ ليس خروجا إنسحاب و إنطواء على الذات . ليس خروجا تعويضيا عن طريق روحانية مريحة ، بل خروج الإمامة من التاريخ يعبر عن طاقة الإمامة امام هيمنة القوة و هيمنة المحايثة كما تتجلى في واقع التاريخ .
فالإمامة لا يحتويها التاريخ لذلك فطاقتها التحريرية هي طاقة لا تنفد و حقيقتها حقيقة تغييرية تؤسس للتاريخ الكوني كونية حقيقية .

و هكذا فالغدير لا يحتويه التاريخ و لا تحتويه الحتمية التاريخية فمجاوزة الغدير للتاريخ تعني إنهيار كل فلسفات الصيرورة التي تنظر إلى التقدم كتقدم خطي داخل تاريخ يكفي نفسه بنفسه و في سياق حتمية تاريخية قاهرة لا يمكن إختراقها و تغييرها . فعوامل القوة لا يمكن التغلب عليها و التقدم لا يمكن إيقافه و هو ملازم للغرب فالغرب وحده هو الذي يمثل التقدم و يجسد الكونية .

الغدير لا يتخذ موقعه في هذا السياق ، الموقع المتعالي للغدير يعطيه المسافة و العصمة و الأفق لتغيير التاريخ و كسر التقدم الخطي . فالغدير يجتث الامة من التاريخ لتغيير التاريخ .

إن الحقيقة الفوق – تاريخية للغدير لا تنفي الواقع و التجربة بل تقتضيهما لأن مجاوزة التاريخ تقتضي الفعل و الحركة أي الثورة و تأسيس دولة التغيير أي دولة الثورة .فالغدير يعبر عن حقيقة الأمة كأمة في تحقق مستمر و كونيتها كونية التحقق المستمر . و هذا التحقق يتمحور حول الإمامة .

فزمان الإمامة لما يتفاعل مع الزمان التاريخي يؤدي إلى زمان سياسي قائم على الثورة و التجديد . فالغدير أسس لزمان غير الزمان التاريخي : زمان الإمامة الذي أصبح في عصر الغيبة زمانا مهدويا . زمان الإمامة أسس منذ الإمام علي (ع) لزمان سياسي مثالي أي أسس للسياسة بمعناها الحقيقي المبني على القيم وليس للسياسة بمعناها المبتذل (الجاه و الشهرة و حب السلطة) إن زمان الإمامة ليس زمانا إخلاقيا بالمعنى المجرد أو بالمعنى الطوباوي بل هو زمان ينبع من إستيعاب الإمام للعقيدة و للواقع إستعابا في مستوى العصمة .

فهنا المفاهيم الفلسفية ذات المصدر الغربي كالمثالية و الطوباوية و الواقعية و العقلانية ... يجب إعادة النظر فيها و إعادة صياغتها للتمكن من فهم موقع الإمام في العصر أي في الزمان التاريخي . الزمان الأمامي ليس زمانا طوبويا حتى يقال بأنه لن يتحقق في الواقع و في التاريخ لأن تحققه ينفي طوباويته . هو يتجاوز الطوباوية لأن الطوباوية لا تتحقق في الزمان التاريخي في حين أن الزمان الإمامي مع أنه يتجاوز الزمان الطوباوي من حيث القوة و الطاقة التغييرية و الآفاق فإنه يتحقق في التاريخ بتحويله من تاريخ واقعي (أي تاريخ الواقع) إلى تاريخ حقيقي . مع العلم بأن عملية التحويل هذه لا تتم بصورة نهائية بل هي في تحقق مستمر . فالإمامة ظاهرة حركية أي تحقق القيم العقائدية و السياسية بصورة مستمرة فالإمامة حاضرة في التاريخ و تتعامل مع مفرداته و متطلباته في مستوى العصمة و ليس في مستوى الإجتهاد أي مستوى التجربة . و حتى في عصر الغيبة هناك حضور معياري و مفاهيمي للإمامة لكن عن طريق النيابة أي عن طريق ولاية الفقيه كإجتهاد .

إن كونية الإمامة و مستقبلها الموعود كل ذلك يقتضي مجاوزة التاريخ الهيجلي و ليس الخروج منه خروجا تعويضيا أو مثاليا أو طوباويا . المجاوزة هنا تكسر طاقة التاريخ الواقعي الذي يدعي الكونية في كل عصر ، مثلا معاوية كان يدعي بأنه ظل الله في الأرض و أمريكا تدعي اليوم بأنها منتهى حركة التاريخ . فمجاوزة التاريخ تتم عن طريق العصمة . الإمامة أسست للقطيعة الجذرية مع الواقع غير الشرعي أي مع التاريخ المبني على القوة و الأمر الواقع .

و المسلمون اليوم في أشد الحاجة إلى مرجعية الإمامة ، بل البشرية كلها اليوم تحتاج إلى فكر الإمامة و قيم الإمامة ، فالخطأ الأكبر و المميت يكمن في إتباع الفلسفة الغربية ، خاصة فلسفات التاريخ طريقا للتحديث بدلا من طريق التجديد .

فالفكر الذي يستمد مرجعيته من الإمامة هو فكر يفتح الزمان على الآفاق و ليس على النهاية كنموذجية يجسدها نظاما سياسيا معينا على غرار نظرية نهاية التاريخ التي تبرر اليوم كونية الغرب عن طريق كونية الديمقراطية الليبرالية الأمريكية .

لا يمكن تجاوز الحداثة و ما بعدها اليوم إلا بنقد جذري للفكر الغربي عن طريق نقد عقل الأنوار و نقد النسق الفلسفي الهيجلي المهيمن على الفكر المعاصر و على الممارسة السياسية للدول الغربية .

إن الفكر الغربي لا مرجعية له تمكنه من النقد و إعادة البناء . و المرجعية الوحيدة في العالم اليوم هي الفكر الإسلامي الذي يسير في خط الإمامة .

إن الفكر الذي يتخذ الإمامة مرجعية له هو الذي سيخرج الفلسفة اليوم من الإنسداد المميت . هذا الفكر هو الذي سيعيد الفلسفة إلى الزمان : الزمان التريخي المنفتح على ما يتجاوزه و يرجع السياسة إلى متطلبات القيم الأخلاقية . إن ربط الفلسفة بالإمامة أي بالقيم و المفاهيم الملازمة للإمامة سوف يحررها من الإنغلاق في النسق الكلي الذي يدعي الإطلاقية و ينظر لنهاية التاريخ .

الإمامة تحرر الشعوب من حتمية التاريخ القاهرة و تدخل الشعوب في طريق التحرر . فالإمامة اليوم هي القوة الوحيدة التي تفعل الطموح التاريخي للشعوب الإسلامية . الطموح التاريخي الذي يعبر عن الروحانية الحقيقية التي تتمحور حولها الإمامة و التي تقف في وجه العقل الوضعي كعقل يكفي نفسه بنفسه ، العقل الذي يبرر مآسي التاريخ باسم منطق التاريخ الذي يكفي نفسه بنفسه ، في حين أن العقل الملازم للإمامة هو عقل الآفاق ، عقل منفتح على الغيب . فحقيقة الإمامة حقيقة تجاوزية . أي حقيقة لا ترضى بالأمر الواقع و تتجاوزه . فالإمامة إذا رضيت بالأمر الواقع فهذا يعني (و هذا مستحيل) أنها ترضى بيزيد و بالصهيونية و بالرضوخ لأمريكا . فحقيقة الإمامة حقيقة تجاوزية لا يحتويها الواقع مهما كان قاسيا وثقيلا .

و من هنا فإن الثورة في العالم الإسلامي و المقاومة ، هي مواقف لم ينتجها التاريخ لوحده، فالإمام الخميني و الإمام الخامنائي و السيد حسن نصر الله و السيد مقتدى الصدر ، هؤلاء كلهم جاءوا ليغيروا التاريخ و لإعادة بنائه و تحويله إلى تاريخ حقيقي.

لا يمكن أن نفهم تاريخ هذا العصر ، أي حقيقة هذه المرحلة ، إذا لم نعط لحط أهل البيت (ع) كل أبعاده ، إن التغيير الذي تؤسس له الإمامة يختلف عن الرؤية الخطية لحركة التاريخ ، فمرجعية الإمامة تزلزل التاريخ و تنتصر على الحتمية ، فهذا العصر هو عصر الصراع بين عقل الأنوار المنفصل عن الله و بين عقل أهل البيت (ع) المنفتح على الغيب . عقل الأنوار عاجز عن فهم حقيقة الإمامة لأنه عقل مبني على ثنائية العلاقة بين الفكر و المادة و بين الجسم و الروح و بين الدين و السياسة و بين الأرض و السماء . هذا العقل هو الذي أنتج النسق الفلسفي الهيجلي الذي يدعي الإطلاقية فختم الفلسفة و أنهى التاريخ . ففلسفة هيجل عجزت عن التنظير في سياق تاريخ منفتح على ما تجاوزه و حصرت نفسها داخل إطلاقية التاريخ . أي داخل مطلق مزيف لأن المطلق الوحيد هو الله تعالى .

لقد تجلت حقيقة دور الإمامة في هذه المرحلة من التاريخ أكثر من أي وقت مضى . مفاهيم و معيارية الإمامة هي الوحيدة اليوم التي تمكن الفكر الإسلامي و الفكر المعاصر على العموم من فتح طريق جديد بعد موت الإيديولوجيات .

فحل الازمة اليوم ليس حلا عاديا مبنيا على عقلانية وضعية و أداتية و على العوامل التاريخية كقوة تكفي نفسها بنفسها ، بل هو حل إستثنائي لا يمكن أن تقدمه إلا مرجعية الإمامة كمرجعية فوق – تاريخية أي كغدير حقيقته تنزيلية و ليست شورية .

فالرؤية المستقبلية التي تحتاج إليها البشرية بعد إنهيار فلسفات التاريخ ، و الروحانية التي تحتاج إليها البشرية بعد فصلها للعقل و السياسة عن الدين هي ما تقدمه مرجعية الإمامة : الإمامة تقدم للبشرية اليوم الروحانية الحقيقية و تقدم لها الرؤية المستقبلية الحقيقية التي تتخذ موقعها في سياق الثقة الإنتظارية و ليس في سياق التخمين الفلسفي الغامض.

لقد ماتت إيديولوجيات القرن العشرين و تبين بأن وراء هذه الإيديولوجيات لا وجود لأية حقيقة و لا وجود لأي فكر . و لم يبق اليوم إلا خط الإمامة كملجأ وحيد لإنقاذ البشرية من عدمية عالم بدون إله. فخط الإمامة هو الخط الوحيد اليوم الذي يمتلك الطاقة لإعادة بناء العالم عقائديا و أخلاقيا و سياسيا . إن وجود خط الإمامة في عصرنا هو إمداد غيبي و ليس مجرد منتوج تاريخي . فعن طريق خط الإمامة يمكن فتح المجال لحضور النبوءة في الحياة بكل جوانبها الأخلاقية و السياسية والثقافية .

فوجود خط الإمامة اليوم هو حادث فوق –تاريخي و هو الذي يجسد نهاية التاريخ حقا . أي نهاية واقع التاريخ ، و هو الذي يضع البشرية في بعد آخر هو بعد النبوءة .

لذلك فإن حادثة الغدير هي تنزيل أي حادثة مصدرها غيبي أسست لخط الإمامة كخط كوني يستوعب كل المذاهب و كل الثقافات و كل الشعوب .

فالإمام يتجاوز التاريخ و يعيش في التاريخ ، يعيش تاريخ الأمة بكل جزئياته و مآسيه . فالإمام ، من هذا المنظور ، مثالي و لكنه ينطلق من الواقع . أو هو واقعي و لكنه يربط الحاضر بما يجب أن يكون ، بالمستقبل ، بمثالية الأمة . فالإمامة ليست طوباوية ، و تطلعها يختلف عن علاقة الحاضر بالمدينة الفاضلة ، فهنا يجب إعادة النظر في كل المفاهيم الفلسفية كالعقلانية ، و التجربة و المثالية و الطوباوية ...

الإمام يرتبط بالمستقبل من خلال العصمة لذلك فهو يتمتع بالمسافة تجاه الواقع وتجاه الأحداث ، الواقع لا يستغرق الإمام لأنه يتمتع بأعلى درجة من التقوى و الإلتزام العقائدي بالرسالة و لأنه معصوم ، و من هنا فهو ينظر إلى المستقبل بعين الغيب . فالبعد التاريخي حاضر في موقف الإمام من الواقع و من القضايا و لكنه حضور له نوعيته لأن التاريخ لا يحتوي الإمام : فهيجل يعجز عن فهم الإمام . و علاقة الإمام بالمستقبل ليست انتظار مريحا بل علاقة فعل ومسؤولية و جهاد . فالإمام يتفاعل مع التاريخ زمان الإمامة يتفاعل مع الزمان التاريخي ليتجاوزه و يوجهه و يعيد بنائه .

فالإمامة لم تؤثر فيها الأحداث القاسية بل استطاعت بناء نموذجية للأمة ، بناء مرجعية و أصل و بناء القدرة على الرفض .

و هكذا فالفلسفة التي نستمدها من الغدير ، أي من الإمامة لا تسير في خط المدينة الفاضلة للفارابي و لا تسير في فلسفة الغزالي التي لم تتحرر من تبرير الواقع القائم و التنظير "للسلطان المطاع "إتقاء للفتنة . و لا تسير في خط التوفيق بين الدين و الفلسفة ، أي لا تسير في خط ابن رشد . و لا تسير اليوم في خط التوفيق بين الإسلام و الليبرالية أو بين الإسلام و الإشتراكية ، أي لا تسير في خط الحداثة و ما بعد الحداثة ، فالحقيقة العقائدية و المعرفية للإمامة تؤسس اليوم لفلسفة التجديد و ليس لفلسفة التحديث .

و معنى هذا أن الرجوع إلى الإمامة في مجال التنظير للمعرفة و للمجتمع و للرؤية المستقبلية . إن هذا الرجوع يقتضي كما تمت الإشارة فيما سبق نقدا جذريا لعقل الأنوار و لفلسفة هيجل .إن العقل الملازم للإمامةهو عقل منفتح على ما يتجاوزه أي منفتح على الغيب . فلا يمكن ، من هذا المنظور ، أن ننظر الفلسفة الملازمة للإمامة لموت الإيديولوجيا لأن الإيديولوجيا عقيدة في فلسفة الإمامة . و لا يمكن أن ننظر لموت السياسة لأن السياسة عبادة في فلسفة الإمامة ، و لا يمكن أن ننظر لنهاية التاريخ لأن التاريخ منفتح على الله في فلسفة الإمامة أي منفتح على ما يتجاوزه ، ففلسفة الإمامة لا تقف حيث تقف فلسفة هيجل . هيجل جسد الله في نابليون ثم جسده بصورة نهائية في التاريخ ، كما أن فلسفة الإمامة لا تقف حيث وقفت اليوم فلسفة ف.فوكوياما الذي أنهى التاريخ في أمريكا ، في الديمقراطية الليبرالية الأمريكية .

إن التاريخ في فلسفة الإمامة هو مسرح للعبودية ، هو تجسيد للعلاقة التعبدية للإنسان بالله تعالى ، علاقة الإنسان بالمثل الأعلى الحقيقي بتعبير الشهيد الصدر .

فلا مجال للمقارنة هنا إلا من موقع الإشارة إلى أن فلسفة الإمامة هي التي تحتاج إليها الأمة في كل عصر ، خاصة في هذه المرحلة من هذا العصر . ففلسفة الأمة فلسفة كونية تفتح الآفاق بعد إنسداد الآفاق حيث أصبحت الفلسفة الغربية تنظر للنهايات : نهاية التاريخ . فلا مجال للمقارنة هنا بين الإمام الخميني (رضي الله تعالى عنه) و الإمام الخامنائي و السيد مقتدى الصدر و السيد حسن نصر الله من جهة ، و بين فوكوياما من جهة أخرى .ففوكوياما أنهى التاريخ ، أي أنهى صيرورة البشرية في الديمقراطية الليبرالية الامريكية . بينما أن خط أهل البيت (ع) و المسلمون جميعا يسعون اليوم بكل الصور ، سواء عن طريق المقاومة كما في العراق و لبنان و فلسطين أو عن طريق الثورة و الدولة كما في إيران ، أو عن طرق الغليان العاطفي لدى كل شعوب العالم الإسلامي : كلهم يسعون إلى تغيير الواقع المهيمن أي تغيير التاريخ ، تاريخ الواقع بمعناه الهيجلي التبريري الذي يدفع بالمسلمين خاصة ، نحو المذبحة الأمريكية .

فالإمامة أسست للآفاق . و هذه الآفاق بدأت البشرية تعيش على عتبتها اليوم . فكل شيء قد انقضى . فهناك أزمة قاتلة أدت إلى الشعور بالإحباط و الرعب من المستقبل بعد فشل و إنهيار كل فلسفات التاريخ الغربية .

كلها فلسفات قامت على عقل الأنوار الذي جرد العقل من بعده الروحي و حجزه في دائرة حاضر مغلق .

إن الواقع الذي تعيشه البشرية اليوم ، خاصة الشعوب الإسلامية ، يثبت أن صورة التاريخ هي صورة هيجلية حقا . أي صورة غربية أمريكية ، و لأن التاريخ كذلك ، أي التاريخ كتاريخ هيمنة القوة ، فإن خط أهل البيت (ع) لا يمكن إلا أن يتخذ موقعه خارج هذا التاريخ بالمعنى المعياري للتأسيس لتاريخ آخر هو التاريخ الحقيقي . فواقع التاريخ اليوم هو تفتيت العالم الإسلامي . فالغرب يسعى إلى أن يكون للمسلمين مشاريع طائفية و مذهبية و جهوية و ليس مشروعا إسلاميا .

فهناك النقيض العقائدي و الوجودي و السياسي لهذا التاريخ و هو خط الغدير الذي يجعل الشعوب تفكر بمستقبل التاريخ الحقيقي و في أفق بناء كتلة تاريخية تضم كل المذاهب و القوميات لتلتقى على مشروع نهضوي إسلامي .

المراجع :

_ الشهيد السيد باقر الصدر : أهل البيت ، تنوع أدوار ووحدة هدف ، دار التعارف للمطبوعات –بيروت- بدون تاريخ .

_الإمام الخميني : دعوة إلى التوحيد .(رسالة الإمام إلى ميخائيل غوبا تشوف) نشر مؤسسة تنظيم و نشر تراث الإمام الخميني – طهران ٢٠٠٦

_ Rudolf Haym : Hegel et son temps –Gallimard , Paris ,٢٠٠٨